2 مدام دي سيفينيه

الكاتبة الفرنسية ، التى أبدعت من خيالها الخصب ، وخفة روحها ، وصفاء نفسها رسائل تُعتبر من روائع الأدب العالمى، بمثابة وصفًا نفسيًّا لها ، وتاريخًا للحياة الفرنسية فيما بين عام 1655 ، 1686 م وهى مزيج من التاريخ والسياسة والفلسفة والأدب والحبّ .

وهى الكاتبة التى عاشت رحلة حزن وألم ، فقد تيتمت منذ نعومة أظفارها ، وترملت وهى فى عنفوان الشباب، وفارقت ابنتها الأثيرة إلى قلبها بعد زواجها ، وأنفقت من مالها الخاص – مع ندرته – على نزوات ابنها !! مدام دي سفينيه.

(لا تصرفوا النفس عن طبيعتها أبدًا، فهذه خير الوسائل للوصول بالأسلوب إلى درجة الكمال).

الميلاد وذكريات الطفولة :

هى شخصية أدبية نسائية كانت من أديبات القرن السابع عشر الميلادى فى فرنسا الملكية ، وهى فتاة عريقة برجوازية ومنحدرة من عائلة رأسمالية ، المشهورة أدبياً باسم «مدام دى سيفينيه» Madame De Svigné ، أمَّا اسمها الحقيقى فهو «مارى دوشنتال» Mari De Chantal ، التى ولدت فى باريس عام 1626 م من أبوين ثريين . سرعان ما فقدت أبويها وهى فى السادسة من عُمْرها ، أى حوالى عام 1632 م، فعرفت بذلك طعم اليُتم منذ نعومة أظفارها .

زواج مؤلم ، وترمل وثروة ضائعة !!

فى الثانية عشرة تزوجت «مارى دوشنتال» من أحد النبلاء من مقاطعة «بريتانيا» وهو المركيز «هنرى دى سيفينيه» Henri De Sevigné فى يوم 4 أغسطس عام 1638م . وقد كان زواجاً مؤلماً ومحطماً للنفس ، فقد كان الماركيز «دى سيفينيه» زير نساء ، وكان مبذراً لأموال زوجته التى انتقلت معه إلى مقاطعة «بريتانيا» ، وطفق يبذر أموال الغلال على ملذاته . وفى 4 فبراير عام 1651 م تبارز «هنرى دى سيفينيه» مع فارس من ألبرت le chevalier d´Albret لأجل امرأة كان يعشقها تُدعى «مدام دى جوندران» Madame De Gondran ، فمات المركيز «دى سيفينيه» بعد ذلك بيومين متأثراً بجراحه ؛ وبذلك ترملت «مدام دى سيفينيه» وهى فى عنفوان أنوثتها المُقبلة على الحياة بتفتح وحيوية ، ترملت وهى فى سن الخامسة والعشرين من عُمْرها، بعد زواج دام اثنى عشر عاماً ، مع ثروة مثقلة بالديون وطفلين صغيرين ، ابنة فى الخامسة من عُمرها ، وابن فى الثالثة .

أبناء «مدام دى سيفينيه» : ابن «مُبذر ، وابنةٌ مُتعبة» !!

كان من ثمرة زواج «مدام دى سيفينيه» أنَّها أنجبت ابنةً تُدعى : «فرانسوا مارجريت» Francoise Marguerite المولودة فى 10 من أكتوبر عام 1646م ، وابنًا يُدعى «شارلز» Charles المولود فى 12 من مارس 1648 م .

كان ابنها «شارلز» ذا نزوة جارفة فى إنفاق المال ، فكانت «مدام دى سيفينيه» تزوده بالمال - على الرغم من قلته وندرته - وذلك اتقاء شره وجنوحه ، وكانت تصف صرفه وتبذيره للمال فى إحدى رسائلها بقولها: «إنَّ يدَه بوتقة ينصهر فيها المال ليسيل» ، ثم التحق بالجيش.

وفى 27 من يناير 1669م تزوجت الابنة «فرانسوا مارجريت» من الكونت «دى جرينان» سليل إحدى العائلات العريقة من «بروفنس» والذى كان يعيش بالقرب من

باريس ، ولكن فى نوفمبر من العام نفسه عُين ملازم أول فى «بروفنس» فى الجنوب الفرنسى ممَّا اضطره للعيش فيها.

كانت «مدام دى سيفينيه» مسرفة فى حب تلك الابنة أكثر من حبها لابنها الوحيد الذى كان يتصف بشذوذ العقل وإسرافه لأموال أسرته على نزواته الخاصة .

كان سفر الابنة إلى إقليم «بروفنس» الحد الفاصل فى حياتها ، حيث لم تتحمل البعد عن ابنتها ، لقد كان ذلك صدمة مروعة للأم ، التى أصبحت حياتها تتكوَّن من فراق مرير مُفعم بالقلق ، وكانت كل دقيقة تمرّ عليها تُعانى فيها خيبة الأمل ، لقد عانت الوحدة الموحشة المؤلمة .

أنجبت «فرانسوا مارجريت» التى أصبحت تُلقب باسم «مدام دوجرينان» طفلين ابناً وبنتاً، ولكن عاطفة الأمومة عندها ضعيفة ضحلة، فهى ترسل بابنتها «مارى بلانش» Marie Blanche - وكانت موضع حب جدتها «مدام دى سيفينيه» - إلى أحد الأديرة فى السادسة من عُمْرها لتتخلص من تربيتها ونفقات زواجها مستقبلاً . كما تحتفظ الأم بابنها ثم ما أن كبر حتى زوجته من ابنة رجل غنى، والجدة «مدام دى سيفينيه» لا توافق على مثل هذه التصرُّفات ، فهى فى رسائلها تقرعها غاية التقريع .

كانت الحياة صعبة على هذه العائلة المنكوبة ، فالديون الثقيلة قد أرغمتها على تخفيض مستوى معيشتهم . وابنتها كانت متعبة أشد التعب ، فكانت أمُّها «مدام دى سيفينيه» تشعر كما لو كانت متاعب ابنتها متاعبها الخاصة ، ولذلك لا تجرؤ أبداً على الوقوف فى سبيل شىء تريده أو تبتغيه ، وتعمل كل ما فى وسعها لمساعدتها ، حتى توفيت ، وهى بالقرب من ابنتها ترعاها وتعتنى بها.

المصادر الثقافية «لمدام دى سيفينيه»:

كانت «مدام دى سيفينيه» على درجة كبيرة من الثقافة والتعليم ، لذلك كانت قراءاتها تتسم بالعمق والجفاف معاً . وكانت متيمة بالكتب، عاشقة لكل ما يهدى إلى

الفهم والتفكير ، يتجه ذوقها نحو كل ما هو رقيق وممتع ، تولع بالمغامرات التى تقرؤها فى القصص والروايات . وكانت لها محاولات أدبية فى كتابة بعض الفصول النثرية القصيرة .

عكفت على كتب الأدب الرفيع تنهل منها نهلاً ، وكانت أول ما قرأت تاريخ «تاسيت»Tacit[1] أعظم المؤرخين اللاتينيين . ثم قرأت «اعترافات» القديس أوغسطين Saint Augstin ، وكذلك كتابه «مدينة الله» وعكفت أيضاً على مؤلفات «كينتيليان»[2] ثم وجهت ثقافتها نحو العصر الذى تعيشه فقرأت كل ما كتب «باسكال» قراءة متأنية ، حيث كان ينقلها من عالم إلى آخر . كما كانت تعشق «كورنى» واستمتعت بمؤلفاته ، وأُعجبت بهزليات «موليير» ، وكانت تقرأ «راسين» ولكن قراءة تمتزج بشىء من البرود، لأنَّه لا يُرضى «حسها» ممَّا يؤكِّد على أنَّها ذات طبيعة عقلية بحتة (تُدرك الأفكار ولا تُدرك الشعر) .

كذلك قرأت فى الأدب الرومانى واليونانى . من هذا الرصيد الضخم من القراءات انبعثت كل تلك الملاحات التى تملأ خطاباتها عن الحياة البشرية وعن الأخلاق والعواطف والعادات .

وحينما سافرت إلى باريس واقتربت من البلاط الملكى فى العاصمة الفرنسية وأقامت فى قصر «رامبوييه» تعرَّفت على شخصيات عديدة أهمها «مدام دولافايت»[3] وهى امرأة فاتنة ، جميلة ، اتصلت بأديب فرنسا صاحب الشهرة والإقبال «لاروشفوكو» وقد كان يدلف نحو الشيخوخة فتوثقت علاقة «مدام دى سيفينيه» بالاثنين معاً . وكانوا

---

(1) تاسيت : مؤرخ وفنان أصيل، وكاتب حاذق فى معرفة النفس البشرية (القرن الأول الميلادى)، تنحصر أهم مؤلفاته فى (الحوليات) و (التواريخ) .

(2) **كينتيليان** : بليغ لاتينى . عاش فى القرن الأول الميلادى ، حاول عن طريق معهد الخطابة الذى انشأه أن يحول دون انحطاط الأدب ، وأن يجعل الكتاب يحاكون "شيشرون" .

(3) **مدام دولا فايت** : ولدت عام 1634م، ألفت "أميرة كليف" عام 1678م، وهى قصة قصيرة تشبه مأساة "كورنى" توفيت عام 1692م.

يعقدون الجلسات الأدبية ؛ فيناقشون القضايا والآراء الأدبية والتاريخية والسياسية والفنية ، ثم اتصلت بالأديب «ريتز» وكان أديباً واسع الشهرة فى زمانه ، تعرَّفت أيضاً فى تلك الفترة بالأديب الفرنسى الكبير «فوكيه» .

إبداع «مدام دى سيفينيه» :

رسائل إلى ابنتها ، تمتزج بعبق التاريخ والسياسة والفلسفة .. فى أسلوب سلس لا يُحاكى ، رسائل تمثل التاريخ النفسى للكاتبة ، وتأريخاً لحقبة قوامها 31 عاماً قضتها فى باريس ، لم تنشر هذه الرسائل إلاَّ بعد 30 عاماً من وفاتها ، بلغت 1386 رسالة .

كتبت «مدام دى سيفينيه» قليلاً من الرسائل قبل زواج ابنتها ، ولكن بعد زواجها تبدل كل شىء تماماً ؛ فلقد أرادت أن تدفع الملل عن نفسها، وأن تظل قريبة من تلك الغريزة الضائعة (غريز الأمومة) وأن تؤنس وحدتها فى الإقليم النائى التى كانت تقطن فيه ، لقد كان ابتعاد ابنتها عنها ، وهى التى كانت شديدة التعلُّق بها المحنة الأصعب فى حياتها ، فتفجرت معها مواهبها الأدبية الكامنة ؛ فأبدعت من معينها الخصب ، وخيالها المُحلق ، وخفة روحها ، وصفاء نفسها إحدى روائع الأدب الفرنسى والعالمى .

فى 6 من فبراير عام 1671 بعثت «مدام دى سيفينيه» برسالتها الأولى إلى ابنتها ، وهذا كان بداية مشوار مراسلاتها الطويلة التى استمرت حتى وفاتها .

وقد شاءت أن تنقل إلى ابنتها كل أخبار باريس السياسية والأدبية والفنية والاجتماعية، ورأت أن تكتب إليها أيضاً فى رسائلها جميع أخبار القصر والمدينة صغيرها وكبيرها ، ممزوجة بأفكار وتعليقات وخواطر من كل لون . وكانت رسائلها فى واقع الأمر مزيجاً من التاريخ والسياسة والفلسفة والأدب والحب ... إلخ .

وكانت فى رسائلها تتأنق فى أسلوبها ، وكأنَّها كانت تتنبأ أن هذه الرسائل سوف تنتشر بعد وفاتها بثلاثين عاماً ، ليتداولها الناس كقطع من الأدب الرفيع، وإن كانت تدعى فى تلك الرسائل أنَّها تلقى لقلمها العنان ، ولكن أثر الصنعة والدقة كانا واضحين

فيها ، عموماً فإن تلك الرسائل لم يُراد منها النشر والتداول بأى حالٍ من الأحوال ، على الأقل فى تلك الأثناء .

استمرت رسائلها تلك ، وكانت تضع لكل رسالة عنواناً ، والعنوان يُلخص مضمون الرسالة ، ومن أمثال تلك العناوين : موت دوفاتيل ، موت تورين ، زواج الآنسة العظيمة ، قصة فوكيه ، انتصار شهر مايو ، بهجة الحصاد ، تفتح البراعم . إلى آخر تلك العناوين الجذابة .

يقول «لابروير» الأديب الفرنسى الكبير ، وقد كان يعنى «سيفينيه» بقوله هذا: «إنَّهن يُصدرن سلسلة من الحديث الذى لا يُحاكى ، والذى تترابط حلقاته عن طريق الحس وحده» . وكان صادقاً فيما وصف ، لأنّ «مدام دى سيفينيه» كتبت تقول فى إحدى رسائلها : «لا تصرفى النفس عن طبيعتها أبداً ، فهذه خير الوسائل للوصول بالأسلوب إلى درجة الكمال» . وقد وصلت هى إلى هذا النوع من الأسلوب الذى يستعصى على المحاكاة والتقليد بما وهبت من قدرة على التنوع.

أمَّا ابنتها «مدام دى جريناں» فقد ساهمت بدور كبير فى ذيوع وانتشار هذه الرسائل الأدبية القيمة ، إذ لم تُهمل أى رسالة من تلك الرسائل ، بل احتفظت بها فى تسلسل تاريخى مرتب حتى خرجت إلى قُرَّاء الأدب بعد ثلاثين عاماً من وفاة والدتها .

وفى عام 1725 م نُشرت رسائل «مدام دى سيفينيه» بشكلٍ غير رسمى واحتوت على 28 رسالة . وفى عام 1726م قرَّرت حفيدتها «بولين سيميان» Pauline de Simiane نشر رسائل جدتها «مدام دى سيفينيه» رسمياً فى دار نشر Aix - en - Provence ، حيث نُشرت 614 رسالة من عام 1734م إلى 1737 م، ثم 772 رسالة فى عام 1754م ، حيث تم تنقيحها تبعاً لتوجيهات حفيدتها «بولين».

خصائص أسلوب «مدام دى سيفينيه» فى الكتابة :

كانت «مدام دى سيفينيه» تنفر من استعمال الوسائل الصناعية فى الكتابة ، ولقد قال «لابروير» : «إنَّ النساء يفقن الرجال بكثير فى أدب الرسائل» ، لا شك أنَّه كان يعنيها تحديداً .

والخيال هو صفتها الجوهرية الطاغية التى تجعل من رسائلها شيئاً فريداً ، ذلك الخيال القوى الذى يرى الأشياء ، والابتكار اللغوى يصورها تصويراً بليغاً، وحينما كتبت عن موت «تورين» Turenne نراها تمتلىء قوة وحيوية ذلك لأنَّ خيالها قد عمل ببطء على تكوين صورة كاملة له ومن هذه الصورة خرجت القصة النهائية بسيطة، ورائعة روعة الحقيقة الواقعة نفسها .

وتزعم «مدام دى سيفينيه» أنَّها كانت تترك لقلمها الحبل على الغارب ، ولكن القارئ لا يشعر بهذه التلقائية إلاَّ فى القليل من رسائلها، لأنَّها تعلم تماماً أن الناس يتناقلون هذه الرسائل بشىء من الفضول ، وإنَّهم يعجبون بها ؛ لذلك كانت تسعى إلى السيطرة على إلهامها حتى مع ابنتها ، وتحاول أن تبرز المواقف التى تعرفها فى نفسها كالرقة الممزوجة بالمرح ، وحرية التركيب والأخيلة التى تفيض حيوية، وغير ذلك من الصفات التى يندر العثور عليها فى نثر القرن السابع عشر .

وفى بعض الأحيان تبدو عباراتها مسرفة فى البريق ، وهى ليست من السمات الغالبة عندها ، ولعلّ الشىء اللافت للنظر أنَّها تكتب كل شىء بطريقة مباشرة ، صادقة ، وبسيطة ، أى بطريقة طبيعية .

السمات الشخصية «لمدام دى سيفينيه» :

تتصف «مدام دى سيفينيه» بأنَّها : هادئة المِزاج ، ذكية ، ذات خيال خصب، كانت بشوشة وبعيدة نسبياً عن التأثير والحساسية المفرطة ، كذلك لم تتفجَّر عواطفها وتشتعل

إلاَّ لابنتها فقط ، وكانت حنونة على ابنها ، يُضاف إلى ذلك بضع صداقات ساهم فيها العقل والقلب بنصيبين متساويين.

· كان من أهم سماتها الشخصية أيضاً الدهاء ، وأنَّها كانت عصية الدمع ، قليلة التأثُّر بآلام الآخرين !!

كانت أيضاً تُحب الطبيعة ، وهذا ما يُميز رسائلها عن غيرها من آداب الحقبة الكلاسيكية .

الوفاة :

توفيت «مدام دى سيفينيه» فى عام 1696 م، عن عُمْر يناهز 70 عاماً.

obeikandl.com